الأوزاعـي

فقيـه أهـل الشـام

يسود في العالم الإسلامي اليوم المذاهب الأربعة: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ، ويأخذ المسلمون منها الأحكام الشرعية ، والفقه الإسلامي ، ويتقيد الناس في كل قطر بأحدها أو بأكثر من واحد ، وقد نشأت هذه المذاهب في القرن الثاني الهجري وما بعده ، ويرجع المذهب الحنفي للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت(ت١٥٠ هـ) ، ويعود المذهب المالكي للإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت١٧٩ هـ) ، وينسب المذهب الشافعي للإمام محمد بن إدريس القرشي المطلبي (ت٢٠٤ هـ) ، ويقوم المذهب الحنبلي في أصوله على الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١ هـ) ، وظهر هؤلاء الأئمة في الكوفة والمدينة ومكة وبغداد ومصر ، وكانوا على درجة عالية من العلم والفقه وملكة الاجتهاد والاستنباط ، مع التقوى والورع والعبادة والإخلاص ، وعكفوا على تقرير القواعد ووضع المناهج وتحديد أصول الاجتهاد ، وتحديد مصادر الأحكام ، وبيان مسائل الفقه منها ، وبذلوا الجهد الكبير في التعليم والتدريس ، ووصلوا الليل بالنهار ، فالتف حولهم التلاميذ والطلاب ، والفقهاء والعلماء ، وأخذوا عنهم علمهم ، ودونوه ، ثم نشروه في الأقطار ، وقيض الله له البقاء والحفظ والاستمرار حتى يومنا هذا ، وينتسب الفقه إليهم ، ويتقيد الناس بأقوالهم ، ويلتزمون باجتهاداتهم ،

ويسيرون عليها في الفتوى والقضاء والتشريع والحكم.

ويوجد بجانب هذه المذاهب الأربعة نوعان من المذاهب الفقهية:

النوع الأول: المذاهب التي ترجع في أصلها إلى آراء سياسية في الخلافة والإمامة والحكم، وحصل اختلاف فيها بين جماهير المسلمين المعتدلين من أهل السنة والجماعة، وبين المتطرفين والمخالفين في ذلك كالشيعة والخوارج، ثم تطورت هذه المذاهب السياسية، وصار لها فقه مستقل أيضاً، يرجعون إليه، ويلتزمون به، كالمذهب الجعفري الذي ينسب إلى الإمام جعفر الصادق (ت١٤٨ هـ) ويسير عليه الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، والمذهب الزيدي الذي ينسب إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين (الذي استشهد عام ١٢٢ هـ)، ويطبقه الزيدية في اليمن، والمذهب الإباضي الذي ينسب إلى عبد الله بن إباض التميمي (٨٠ هـ).

النوع الثاني: المذاهب المنقرضة التي ظهرت في التاريخ، وخاصة في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة على أيدي أئمة عظماء، وتابعين أجلاء، ومجتهدين أفاضل، وبعضها انقرض بموت الإمام مباشرة كمذهب الليث بن سعد، وسفيان الثوري، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وابن شهاب الزهري، وربيعة الرأي، وأبي ثور، والطبري، وكان أكثر هؤلاء الأئمة من التابعين، ثم انضوت آراؤهم في الكتب والمراجع والمصادر المتنوعة، وكانت حجر الأساس لظهور المذاهب الأربعة المشهورة، والاعتماد عليها، وبعضها عاشت في مجال التطبيق والحياة، والفتوى والقضاء، والتلقي والتعليم، ثم انقرضت بعد ذلك، كالمذهب الظاهري، ومذهب الأوزاعي المنسوب للإمام الأوزاعي الذي سنتحدث عنه.

اسم الأوزاعي ونسبه:

هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد بن عبد عمرو، الأوزاعي، أبوعمرو، وإنما كانت كنيته أبا عمرو جرياً على العادات العربية،

والآداب الإسلامية من التلقيب بالصغر لئلا يلحق به لقب آخر ، لأن الأوزاعي لم يتزوج إلا امرأة واحدة ، وكأنه لم ينجب منها ، أو لعله أنجب منها فتاة واحدة أو أكثر ، وضاع ذكرهن في غمرات التاريخ.

والأوزاعي نسبة إلى الأوزاع ، واختلف العلماء والرواة والمؤرخون في المراد من الأوزاع ، ففي قول أن الأوزاع بطن من ذي الكلاع الحميري من قحطان اليمن ، سكنت دمشق في صدر الإسلام خارج باب الفراديس ، فسميت المنطقة بها ، وعرفت هذه المنطقة فيما بعد بالعقيبة ، واتصل البناء بها قديماً ، وهي في قلب دمشق الآن ، وقيل الأوزاع بطن من هَمْدان الحميري القحطاني ، والأوزاع لقب لمرثد بن زيد الحميري ، وإليه ينسب الأوزاعي في المشهور.

وفي قول آخر أن الأوزاعي ليس من حمير ، وإنما نسب إلى قرية الأوزاع التي سكنها ، والأوزاع لغة الجماعات ، والأوزاع بالشام من قبائل شتى ، ولم يكن الأوزاعي منهم ، وإنما نزل فيهم فنسب إليه ، وقيل: هو من سبي الهند ، وقيل من سبي اليمن ، ولعل القصد بالسبي هنا من جهة أمه ، أو المراد منه ربطه بمعنى الأوزاع أي الأخلاط المتفرقة ، والقبائل المجتمعة ، فكان الأوزاعي منهم ، ونسب إلى السبي[1].

ولا يضير الأوزاعي أن يكون عربياً حميراً قحطانياً أم هندياً من الموالي ، فقيمة الإنسان بعمله وليس بنسبه ، ولو كان عربياً صميماً ، أو قرشياً مطلبياً لما نفعه ذلك في الدنيا والآخرة ، والقرآن الكريم يقول: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ورسول الله ﷺ يعلن ذلك ، ويحذر من الاتكال على

---

(١) مشاهير علماء الأمصار ص ١٨٠ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٦ ، تهذيب الأسماء للنووي ١/ ٢٩٩، الخلاصة ٢/ ١٤٧ ، وفيات الأعيان ٢/ ٣١٠ ، المعارف لابن قتيبة ص ٤٩٧ ، تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ١٩.

مجرد النسب ، ويدعو للعمل ، فيقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري وأحمد والنسائي والدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤] وقال: يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله ﷺ ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمةُ بنتَ محمدٍ ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً» ، وفي رواية أخرى: «لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم»[1] .

وصار الأوزاعي إماماً جليلاً ، وفقيها مشهوراً بعلمه واجتهاده ، وليس بأصله ونسبه .

ولادته ونشأته:

ولد الإمام الأوزاعي بمدينة بعلبك المشهورة سنة ٨٨ هـ/ ٧٠٧م ، ونشأ بالبقاع في قرية «الكرك» وانتقل من قرية إلى أخرى ، وسكن في دمشق بعد طلبه للعلم وترحاله له ، واستقر في آخر عمره في بيروت مرابطاً للجهاد في سبيل الله ، إلى أن جاءته المنية عام ١٥٧ هـ/ ٧٧٤م ، ودفن في ضاحية بيروت ، ثم اتصلت بالمدينة ، ويعرف الحي باسمه اليوم[2] .

كان الأوزاعي يتيماً في صغره ، وربته أمه فقيراً في حجرها ، وكانت تربيته عالية وأخلاقه سامية ، وتكوينه قويماً سليماً ، يقول أحد تلاميذه

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠١٢ رقم ٢٦٠٢ ، سنن النسائي ٦/ ٢٠٨ واللفظ له ، سنن الدارمي ٢/ ٣٠٥ طبعة دهمان ، مسند أحمد ١/ ٢٠٦ ، الفتح الكبير ٣/ ٣٩٢ .
وفي صحيح مسلم «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» نزهة المتقين ١/ ٢٥٨ .

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٨ ، الأعلام للزركلي ٤/ ٩٤ .

الوليد بن مزيد: «وربي يتيماً فقيراً في حجر أمه ، تعجز الملوك أن تؤدب أولادها أدبه في نفسه ، ما سمعت منه كلمة فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه ، ولا رأيته ضاحكاً يقهقه ، ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد أقول: تُرى في المجلس قلب لم يبك ، ويكفي فخراً لأمه ، وتقديراً لتربيتها ، واعترافاً بفضلها أن أرشدته للعلم ، ووجهته نحو طلبه ، ووضعته على الطريق السديد ليكمل الغاية بنفسه ، ويتابع المسيرة بذاته[1].

وتلقى الأوزاعي العلم ـ في أول حياته ـ على علماء الشام ، وخاصة في دمشق على يدي مكحول فقيه أهل الشام[2] ، وإمام أهل دمشق وتلميذ الصحابي أنس بن مالك ، ثم رحل الأوزاعي في طلب العلم إلى اليمامة ، وكان له فيها مكتب ، وسمع فيها من يحيى بن أبي كثير التابعي الجليل الذي أدرك عدداً من الصحابة ، وكان يدور عليه علم الآثار ، ثم رحل إلى العراق والحجاز ومصر ، وأخذ العلم عن علماء البصرة والمدينة ومكة وبيت المقدس والقاهرة ، وحدث عن عطاء بن أبي رباح والقاسم بن مُخَيْمِرة وقتادة ونافع مولى ابن عمر والزهري ومحمد بن المنكدر وشداد ابن عبد الله القرشي الأموي أبي عمار ، وربيعة بن يزيد ، ومحمد بن إبراهيم التيمي وسفيان الثوري ومالك بن أنس وشعبة وعبد الله بن المبارك ومحمد بن سيرين ، وروى عنه خلق كثير وجماعة من التابعين وبعضهم من شيوخه كقتادة والزهري ويحيى بن أبي كثير وسفيان ومالك وشعبة وابن المبارك ، كما روى عنه هِقْل بن زياد ويحيى بن حمزة ويحيى القطان

---

(١) قال الحاكم: «الأوزاعي إمام عصره عموماً ، وإمام أهل الشام خصوصاً» تذكرة الحفاظ ١/ ١٨٠.

(٢) انظر مشاهير التابعين بالشام ، ومشاهير أتباع التابعين بالشام في (مشاهير علماء الأمصار ص ١١١ ، ١٧٨).

والوليد بن مسلم وأبو المغيرة وأبو عاصم وجماعات كثيرة[1].

مكانته العلمية:

لم يدرك الأوزاعي أحداً من صحابة رسول الله ﷺ، وإنما التقى بكبار التابعين وأخذ عنهم، فهو من تابعي التابعين، ولكنه بلغ القمة في العلم والفقه والزهد والعبادة وصار إمام الديار الشامية بدون منازع، واعترف له أهل عصره، من الحكام والعلماء، وكانت مكانته بين الناس أعز من أمر السلطان، يقول النووي رحمه الله: «وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعي وجلالته وعلو مرتبته وكمال فضله وأقاويل السلف رحمهم الله كثيرةٌ مشهورة، مصرحة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه وشدة تمسكه بالسنة وبراعته في الفصاحة وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له، واعترافهم بمرتبته»[2]، وهذه شهادة عادلة جامعة من الإمام النووي للإمام الأوزاعي.

يقول هِقْل ـ وهو أثبت الناس بالرواية عن الأوزاعي ـ: أجاب الأوزاعي في سبعين ألف مسألة أو نحوها، وقال أمية بن يزيد: «فإن فضل الأوزاعي في نفسه فقد جمع العبادة والورع والقول بالحق»، وقال الحافظ عبد الرحمن بن مهدي: «الأئمة في الحديث أربعة: الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري وحماد بن زيد»، وقال أبو حاتم: «الأوزاعي إمام متبع لما سمع»، وقال ابن حبان البستي عنه: «أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً

---

(١) وأخذ الأوزاعي العلم بالشام عن أخيه عبد الله بن عمرو بن يُخمد (تاريخ دمشق لابن عساكر، المصور ص ٣٠٦).

(٢) تهذيب الأسماء ١/٢٩٨، وقال ابن سعد: «كان ثقة، مأموناً، فاضلاً، خيراً، كثير الحديث والعلم والفقه» (الخلاصة ٢/١٤٦)، وقال الشعراني: «كان المنصور يصغي إليه» (الطبقات الكبرى للشعراني ١/٤٥)، ونقل الحافظ الذهبي عن الأوزاعي أن صنعته الكتابة (تذكرة الحفاظ ١/١٧٨).

وورعاً وحفظاً وفضلاً وعبادة وضبطاً مع زهادة» ، وكانوا يقولون في حياته: «الأوزاعي اليوم عالم الأمة» وكان أفضل أهل زمانه ، قال الذهبي: قلت وكان يصلح للخلافة ، قال أبو إسحاق الفزاري: لو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي ، وذلك لما يتصف من العلم والحلم ، وما يتمتع من المهابة والجلال ، وما يحوطه الناس من الاحترام والوقار ، وذكر الشيرازي في «طبقات الفقهاء» أن الأوزاعي سئل عن الفقه ، يعني استفتي ، وله ثلاث عشرة سنة[1].

مـذهـب الأوزاعـي:

كان الأوزاعي رحمه الله مجتهداً مطلقاً ، وكان صاحب مذهب فقهي ، وله مدرسة فكرية ذات نهج محدد في الاجتهاد والاستنباط ، بينها للناس ، ولقنها لطلابه وتلاميذه ، وأفتى في سبعين ألف مسألة ، وحدد الأصول التي يرجع إليها ، وبين المبادىء والقواعد التي يسير عليها ، وقام طلابه من بعده بالتزام أقواله واجتهاداته ، والاعتماد على أصوله ، والتقيد بمنهجه ، ونشر مذهبه ، والدعوة إليه ، والدفاع عنه بالتدليل والاحتجاج والمناظرة والمجادلة ، لكنهم لم يدونوا مذهبه ، وانتشر مذهب الأوزاعي بالشام عن طريقه مباشرة ، ثم أعان على شيوعه بعده الإمام المحدث محمد بن شعيب الدمشقي ، وسعيد بن عبد العزيز ، والحافظ العابد الفريابي ، وقاضي دمشق يحيى بن حمزة ، وكان القضاء والفتوى على مذهب الأوزاعي ، واستمر العمل على ذلك مع تدريسه

---

(١) تهذيب الأسماء ١/ ٣٠١ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٩ ، ١٨٠ ، الخلاصة ٢/ ١٤٦ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٦ ، المدخل للتعريف بالفقه ، الشلبي ص ١٣٦ ، تاريخ التشريع للشهاوي ص ٢٤٥ ، حلية الأولياء ٦/ ١٣٥ ، الأوزاعي ، سيد الأهل ص ٧٥ ، مشاهير علماء الأمصار ص ١٨٠ ، وفيات الأعيان ٢/ ٣١٠ ، المعارف ص ٤٩٦ ، فجر الإسلام ، أحمد أمين ص ١٨٩ .

حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، وعندما تولى قضاء دمشق أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي ، حكم بمذهب الشافعي وعمل على نشره ، فأخذ مذهب الأوزاعي ينكمش شيئاً شيئاً حتى انقرض أتباعه ، وأصبح مذهب الشافعي هو الغالب على أهل الشام ، كما انتشر مذهب الأوزاعي إلى طرابلس الغرب عن طريق تلميذه عقبة بن علقمة الطرابلسي، ثم بلغ المغرب عن طريق رباح بن يزيد اللخمي المغربي، وشاع وانتشر في الأندلس ، وعمل به أهل الأندلس نحواً من أربعين سنة حتى جاء زياد بن عبد الرحمن القرطبي تلميذ الإمام مالك إلى الأندلس زمن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ونشر مذهب الإمام مالك ، وتضاءل مذهب الأوزاعي في الأندلس ثم انقرض ، كما دخل مذهب الأوزاعي[1] الحجاز ومصر والعراق ، ووصل شرقاً إلى خراسان ، لكنه لم تطل مدته لغلبة المذاهب الأخرى عليها.

وكان مذهب الأوزاعي على مدرسة أهل الحديث ، فيبني اجتهاده على النصوص من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وكبار التابعين ، وكان يقول: «إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فإياك أن تقول بغيره ، فإنه كان مبلّغاً عن الله» ويقول: «عليك بآثار السلف ، وإن رفضك الناس ، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه بالقول ، فإن الأمر ينجلي ، وأنت على طريق مستقيم» وقال أبو حاتم: «الأوزاعي إمام متبع لما سمع» ، وقال الأوزاعي: «اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فإنه يسعك ما وسعهم» كما كان الأوزاعي سلفي الاعتقاد ، كما يظهر من كلامه، ويلتزم

---

(١) انظر: تاريخ التشريع ، للشهاوي ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ ، الأوزاعي ، سيد الأهل ص ٧٥ وما بعدها ، المدخل للتعريف بالفقه ، شلبي ص ١٣٦ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٨٠ ، ١٨٢ ، تهذيب الأسماء ١/ ٣٠٠.

بما جاء في القرآن والسنة عن الصفات وغيرها ، ويقول: «كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إن الله تعالى فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة» ، ويقول: «خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المساجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد في سبيله» ، وقال إسحاق: «إذا اجتمع الأوزاعي ومالك والثوري على أمر فهو سنة»[1].

سيرته ومناقبه:

كانت سيرة الأوزاعي عطرة ، وحياته قويمة ، وسلوكه تطبيق للشرع ، واتباع للسنة ، ومناقبه كثيرة ، يستحيل بيانها في هذا العرض الموجز ، كثير العبادة يحيى الليل صلاة وقرآناً وبكاء ، كثير الخوف من الله والخشوع له ، يقول بشر بن المنذر: رأيت الأوزاعي كأنه عمي من الخشوع ، يذكر الموت كثيراً ، ويستعد للحساب والسؤال عن كل ساعة في عمره ، كما كان كثير الموعظة ، شديد التأثير على سامعه ، يقول الحق لا يخاف سطوة العظماء والحكام ، وموقفه مع قواد السفاح مشهورة وخالدة ، وموعظته للخليفة المنصور جليلة ومأثورة ، لا يخاف في الله لومة لائم كما كان زاهداً في الدنيا ، مترفعاً عن العطايا والهبات ، مات ولم يخلف إلا ستة دنانير أو سبعة ، بينما ترك ميراثاً علمياً ، وثروة فقهية ، وأعمالاً نافعة حتى يوم القيامة ، فجزاه الله خيراً ، وأجزل مثوبته ، ونفعنا بعلمه ، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) قام الشيخ مروان محمد الشعار ، المحاضر في كلية الإمام الأوزاعي ببيروت بجمع الأحاديث التي رواها الأوزاعي رحمه الله تعالى ، في مجلد ضخم بعنوان «سنن الأوزاعي ، أحاديث وآثار ، وفتاوى» في ٨٠٦ صفحات ، ونشرته دار النفائس ، بيروت ـ ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣م.